الفصل الأول

الندم في مدار عطارد

كان قرص الشمس يملأ الشاشة الرئيسية بأكملها، كأنه إله غاضب يحدّق فيهم بلا رموش.

كابتن الفضاء عادل أشرف لم يحرّك رأسه. جلس منكفئاً إلى الأمام قليلاً، يداه مستندتان على حافة لوحة القيادة، وعيناه الرماديتان ثابتتان على ذلك الوهج الذي لا يُحتمل. السفينة «الشهاب» كانت تدور في مدار عطارد منذ ست ساعات، قريبة جداً من النجم لدرجة أن وحدات مقاومة الحرارة كانت تئنّ تحت الضغط، ودرجة الحرارة داخل الكابينة ارتفعت إلى تسعة وأربعين درجة رغم كل الأنظمة.

لم يكن القلق من الحرارة هو ما يجعل عضلات وجهه مشدودة.

كان الندم.

ذلك الشعور الثقيل الذي يزحف من المعدة إلى الصدر، ثم يستقر خلف العينين كحجر ساخن. لو لم يخبر مدحت بكل شيء عن كويكب زوما... لو اكتفى بالصمت كما فعل في المرات السابقة... لما اختفى صديقه. لما اضطر هو الآن إلى المجازفة بحياته وحياة رفيقيه من أجل إنقاذه.

ابتسم ابتسامة مريرة بلا فرح.

كان مدحت شوقى الرجل الوحيد الذي استطاع عادل أن يسميه «صديقاً» دون أن يشعر بالخجل من الكلمة. في عالم الفضاء البارد، حيث يموت الزملاء أو يبتعدون أو يتحوّلون إلى مجرد أسماء على شاشات التقارير، كان مدحت استثناءً. عالماً هادئاً، عنيداً، يحب الأسئلة أكثر مما يحب الإجابات، ولا يهاب أن ينظر إلى الشمس في عينها.

«أنت دائماً تجرّني إلى أماكن لا ينبغي أن أذهب إليها»، كان مدحت يقول له ضاحكاً في المرة الأخيرة التي افترقا فيها.

والآن جرّه عادل إلى مكان لا يمكن العودة منه بسهولة.

رفع رأسه فجأة عندما سمع صوت نبيل ينزلق من خلفه كدخان معدني:

ـ درجة الحرارة الداخلية ما زالت تحت حد الأمان... بالكاد. هل نبدأ الاقتراب أم ننتظر دورة أخرى؟

كان الكمبيوتر الطائر يحوم على ارتفاع مترين، صندوقه المعدني الصغير يلمع تحت الإضاءة الخافتة. عيناه العدسيتان تحدّقان في عادل ببرود محسوب.

أجاب الكابتن بصوت أجش:

ـ ننتظر. أريد أن أتأكد أن وحدات المقاومة تعمل بكامل طاقتها قبل أن نقترب أكثر.

صمت قصير. ثم قال نبيل بنبرة فيها شيء من السخرية اللطيفة:

ـ أنت لا تقلق على الوحدات. أنت تقلق على شيء آخر.

لم يرد عادل.

بدلاً من ذلك نظر إلى يديه. كانتا ثابتتين، لكنهما بدتا غريبتين له فجأة، كأنهما تخصّان رجلاً آخر. تذكّر فجأة طفولته على القمر المهجور، الغرفة الصغيرة التي كان ينام فيها وحيداً بعد أن مات والداه في حادث تعدين، والسنوات الطويلة التي قضاها يتعلّم كيف لا يحتاج إلى أحد. ثم جاء مدحت... ومدحت كان يحتاج إليه، ويسمح له أن يحتاج إليه في المقابل. شيء نادر. شيء خطير.

ارتجف قليلاً رغم الحرارة.

من خلف الباب الحاجز جاء صوت فهد الثقيل وهو يصلح شيئاً ما في وحدة التبريد. الروبوت العملاق كان يعمل بصمت منذ ساعات، كأنه يحاول أن يشغل نفسه حتى لا يفكر. عادل عرف ذلك. فهد، رغم معدنه، كان يشعر بالقلق بطريقته الخاصة.

تنهّد الكابتن ومرّر يده على وجهه.

ـ نبيل...

ـ نعم؟

ـ هل تعتقد أنه ما زال حياً؟

صمت الكمبيوتر الطائر لحظة أطول من المعتاد. ثم قال بصوت أكثر هدوءاً:

ـ البيانات التي تركها تشير إلى أنه خطّط للعودة. لكنه لم يعد. الاحتمالات... متعددة. بعضها أسوأ من الموت.

أومأ عادل برأسه ببطء.

كان يعرف. وكان يعرف أيضاً أنه لا خيار أمامه.

مد يده إلى لوحة التحكم، وبدأ يعدّل مسار السفينة ببطء نحو الكويكب الصغير الأسود المعلّق هناك، كنقطة حبر على صفحة الشمس المتوهجة.

قال بصوت منخفض، كأنه يخاطب نفسه أكثر مما يخاطب رفيقيه:

ـ حسناً يا مدحت... ها نحن قادمون.

سواء كنت حياً أو شيئاً آخر... سأجدك.

وخارج السفينة، كانت الشمس تواصل غليانها الأزلي، غير مبالية بصغير الإنسان الذي يجرؤ على الاقتراب من قلبها.

الفصل الثاني

الرفاق غير البشريين

انفتح الباب الحاجز بصوت هيدروليكي خافت، ودخل فهد بجسده المعدني الضخم الذي يكاد يلامس سقف الكابينة. عيناه الكهروضوئيتان كانتا تومضان بضوء أزرق باهت، وفي كل خطوة كانت أرضية السفينة تهتز قليلاً تحت وزنه.

ـ وحدات مقاومة الحرارة جاهزة بنسبة مئة بالمئة ـ قال بصوته العميق الهادئ ـ. أصلحت الدائرة الثالثة التي كانت تتذبذب. لن نتحمّص... على الأقل ليس بسببها.

ابتسم عادل ابتسامة صغيرة متعبة.

ـ شكراً يا فهد. أنت دائماً تعرف متى أحتاج إلى أخبار جيدة.

الروبوت وقف بجانب مقعد القيادة، وأخذ يدور رأسه المعدني ببطء لينظر إلى الشاشة الكبيرة. قرص الشمس كان ما يزال يملأ كل شيء، كأنه يحاول أن يبتلعهم بنظرته وحدها.

من فوقهما انزلق نبيل بهدوء، وحام في الهواء بين الاثنين كظل فضي صغير.

ـ أخبار جيدة؟ ـ قال الكمبيوتر الطائر بنبرة ساخرة مألوفة ـ. نحن على بعد ساعات من كويكب مجوف مليء بالهمج والأساطير القديمة، وصديقنا المفضل اختفى داخله منذ أشهر. إذا كانت هذه أخباراً جيدة، فأنا لا أريد أن أعرف كيف تبدو الأخبار السيئة.

فهد التفت إليه ببطء.

ـ أنت دائماً تبالغ يا نبيل. نحن ذهبنا إلى أماكن أسوأ. مجرة أندروميدا مثلاً.

ـ أندروميدا كانت مليئة بالكائنات التي تحاول قتلنا بشكل مباشر وواضح ـ رد نبيل بسرعة ـ. هنا... الغموض أخطر. الغموض يأكل العقول قبل أن يأكل الأجساد.

عادل أغمض عينيه لحظة، ثم فتحهما وهو يبتسم رغم كل شيء. هذه الحوارات كانت الشيء الوحيد الذي يجعله يشعر أنه ما زال بشرياً. روبوت يتحدث عن العقول، وكمبيوتر طائر يقلق على الغموض. رفاقه غير البشريين كانوا أكثر إنسانية منه أحياناً.

تذكّر كيف بدأ كل شيء.

كان ذلك قبل سبع سنوات، في محطة الفضاء القديمة فوق المريخ. عادل كان قد عاد لتوه من مهمة كارثية فقد فيها طاقمه بأكمله، وكان يجلس وحيداً في الحانة الصغيرة ينظر إلى كأس فارغة. جاء نبيل أولاً... أو بالأحرى الصندوق المعدني الذي كان يحلق فوق الطاولة المجاورة ويعلق على أخبار الشاشة بصوت لاذع. لم يكن أحد يجلس معه. الناس كانوا يتجنبون الكمبيوتر الطائر الذي فقد صاحبه في حرب الحدود، وأصبح حراً بطريقة مرعبة.

ـ أنت تبدو كرجل يحتاج إلى أن يُهان قليلاً حتى يستيقظ ـ قال نبيل له في ذلك اليوم.

عادل ضحك لأول مرة منذ أسابيع.

بعد أسبوعين، في ورشة إصلاح على القمر، التقيا بفهد. الروبوت العملاق كان يعمل بصمت في زاوية مظلمة، يصلح سفناً قديمة بلا مقابل. صانعته، العالمة الشابة التي برمجت فيه أكثر من مجرد الذكاء الصناعي، كانت قد ماتت في حادث انفجار مفاعل، وتركت فيه شيئاً يشبه الحزن. عادل رآه يوماً يمسك بصورة قديمة بأصابعه المعدنية الكبيرة بحذر شديد، كأنه يخاف أن يمزقها.

منذ ذلك الحين، صاروا ثلاثة.

لم يطلب أحد منهم الصداقة. هي جاءت بهدوء، مثل غبار الفضاء الذي يتراكم على الهيكل الخارجي للسفن حتى يصبح جزءاً منها.

الآن، في مدار عطارد، كان نبيل يحوم أقرب إلى وجه عادل.

ـ هل قلتَ له الحقيقة كاملة قبل أن يذهب؟ ـ سأل بصوت منخفض.

عادل هز رأسه ببطء.

ـ قلت له عن الأسطورة. عن أطفال الشمس الذين رآهم السكان مرة. عن القلعة القديمة. لم أقل له إنني أشعر أن المكان... ملعون بطريقة ما.

ـ ملعون؟ ـ intervenes فهد فجأة ـ. أنت لا تؤمن باللعنات.

ـ لا أؤمن. لكنني أؤمن بأن بعض الأماكن تتذكر. وأن بعض الأسرار ترفض أن تُنسى.

صمت الثلاثة لحظة طويلة. فقط صوت أنظمة التبريد كان يملأ الكابينة، والأنين الخافت لوحدات مقاومة الحرارة وهي تقاوم غضب الشمس.

ثم قال نبيل بهدوء غير معتاد:

ـ مدحت كان يحبنا بطريقته الخاصة. حتى أنا... الصندوق الذي يتكلم. كان يسألني أسئلة فلسفية في منتصف الليل كأني إنسان حقيقي.

فهد أضاف بصوته العميق:

ـ وكان يربت على كتفي أحياناً وهو يضحك. كأنه ينسى أنني معدن.

عادل شعر بشيء يضيق في حلقه. مرّر يده على وجهه بقوة.

ـ لهذا نحن ذاهبون. ليس فقط لإنقاذه. بل لأننا... ندين له بذلك.

نظر إلى الشاشة مرة أخرى. الكويكب الصغير الأسود كان يظهر الآن كنقطة أوضح على حافة الشمس.

ـ حسناً ـ قال وهو يضغط على أزرار التسارع ـ. هيا ننهي هذا الانتظار. زوما تنتظرنا.

وفهد خطا خطوة أقرب إلى لوحة القيادة، بينما نبيل ارتفع قليلاً في الهواء، كأنهما يستعدان معاً لشيء أكبر من مجرد رحلة إنقاذ.

خارج السفينة، كانت الشمس تواصل اشتعالها الأزلي، غير مكترثة بثلاثة كائنات غريبة — واحد بشري واثنان ليسا كذلك — يقررون أن يقتربوا أكثر مما ينبغي من قلبها.

الفصل الثالث

ظل الإمبراطورية

ظهرت نقطة سوداء صغيرة على حافة قرص الشمس المتوهج، ثم كبرت ببطء حتى صارت كويكباً واضحاً.

زوما.

كابتن عادل أشرف أمال السفينة «الشهاب» بزاوية حادة، وقلّل السرعة تدريجياً. كلما اقتربوا، بدا الكويكب أكثر غرابة: سطحه الخارجي محروق ومتشقق، مليء بالحفر والفوهات القديمة، كأن نجماً صغيراً قد عضّه مراراً وترك آثار أسنانه. وفي جانب منه فوهة عميقة مظلمة، هي المدخل الوحيد إلى جوفه المجوف.

ـ ها نحن ذا ـ همس نبيل وهو يحوم قرب الشاشة ـ. الكويكب الذي يبتلع العلماء ولا يعيدهم.

فهد وقف خلف مقعد القيادة مباشرة، رأسه المعدني يميل قليلاً وهو يراقب البيانات.

ـ الإشعاع هنا أعلى بست مرات من المعدل الآمن خارج السفينة ـ قال ـ. وحدات المقاومة تعمل بكامل طاقتها... لكن أي خلل ولو لدقيقة واحدة سيحولنا إلى بخار.

عادل لم يرد. كان يركز كل انتباهه على المناورة. دفع السفينة إلى داخل الفوهة بحذر شديد. الضوء الخارجي اختفى فجأة، وحلّت ظلمة كثيفة، ثم انفتحت أمامهم فجأة قاعة هائلة مضيئة بضوء خافت مائل إلى الأصفر.

دخلوا جوف زوما.

السفينة حلّقت ببطء فوق مشهد لم يكن عادياً بأي مقياس بشري. غابة عملاقة من أشجار يبلغ ارتفاعها مئات الأمتار، أوراقها عريضة ولامعة كأنها مصنوعة من معدن أخضر داكن. ضباب كثيف يزحف بين الجذوع ككائنات حية بطيئة. وفي الأفق البعيد، تلمع بحيرة صفراء كبيرة، مياهها ساكنة ومشعة كأنها مصنوعة من ضوء مجمّد. وفوق كل ذلك، أقواس وأعمدة حجرية عملاقة منهارة، بقايا مدينة كانت يوماً ما قلب إمبراطورية امتدت عبر مجرتين.

عادل شعر بقلبه ينقبض.

كان هنا من قبل. منذ ثلاث سنوات. مع مدحت.

تذكّر كيف كان صديقه يقف على حافة البحيرة الصفراء، يلتقط عينات ويتحدث بحماس عن النقوش القديمة التي وجدها على الأعمدة. «انظر يا عادل... هؤلاء الناس وصلوا إلى ما لم نصل إليه بعد. ثم سقطوا. لماذا سقطوا؟» كان مدحت يسأل دائماً السؤال نفسه، وعيناه تلمعان كعيني طفل اكتشف لعبة خطرة.

الآن لم يكن هناك أحد على حافة البحيرة. فقط الأطلال والصمت والضباب.

هبطت «الشهاب» برفق على رصيف حجري متشقق محاط بأعمدة مكسورة. عندما فتحت البوابة، اندفع هواء دافئ رطب يحمل رائحة غريبة: مزيج من تراب محروق ونباتات غريبة وشيء آخر... شيء يشبه المعادن القديمة التي صدئت تحت شمس لا ترحم.

نزل الثلاثة.

فهد كان أول من خطا على الأرض، قدمه المعدنية أحدثت صوتاً مكتوماً. نبيل حلق فوق رأسه مباشرة، عيناه العدسيتان تمسحان المكان بسرعة. أما عادل فوقف لحظة طويلة ينظر حوله، كأن المكان يعيده إلى زمن آخر.

ـ المدينة كانت هنا ـ قال بصوت منخفض ـ. الإمبراطورية الفضائية القديمة. بنوا هذه القبة الداخلية كلها، زرعوا الغابات، حفروا البحيرة... ثم اختفوا. تركوا أحفادهم همجاً يخافون من ظلهم.

نبيل علّق بسرعة:

ـ والآن يخافون من شيء آخر. من القلعة التي وراء الغابة. ومن الشعاع الذي لا يعود.

فهد دار حول نفسه ببطء، مستشعراً.

ـ لا توجد إشارات حياة بشرية قريبة. لكن هناك حركة... بعيدة. في الغابة.

عادل أومأ. كان يتذكر الطريق. الطريق الذي مشوا فيه هو ومدحت قبل سنوات، بين الأشجار العملاقة، حتى وصلوا إلى حافة المنطقة المحروقة حيث تقف القلعة القديمة. في ذلك الوقت كانت القلعة مجرد أطلال مثيرة للفضول. الآن صارت فخاً ابتلع صديقه.

سار الثلاثة في صمت أول الأمر. صوت أقدامهم على التربة السوداء كان الوحيد الذي يكسر السكون. كلما توغلوا في الغابة، صار الضوء أضعف، والضباب أسمك. الأشجار كانت ترتفع كأعمدة معبد منسي، وظلالها تتحرك كأن شيئاً يختبئ خلفها.

فجأة توقف عادل.

على أحد الأعمدة المكسورة، كانت هناك نقوش جديدة. ليست قديمة. حُفرت منذ أشهر قليلة فقط، بلغة الإمبراطورية القديمة التي لا يجيدها سوى قلة.

اقترب، ومرّر أصابعه عليها، ثم قرأ بصوت مسموع:

«إلى كابتن الفضاء... إذا قدر لك أن تصل إلى هنا. لقد اكتشفت سراً لا يُصدَّق. أعجب شكل من الحياة يمكن تخيله. ومخاطر هذا السر هائلة... إذا لم أرجع، فاعلم أن القلعة القديمة خلف الغابة تحمل مفتاح طاقة لا نظير لها.»

صمت الثلاثة.

نبيل كان أول من تكلم، صوته أقل سخرية من المعتاد:

ـ توقيع مدحت. وختم زمني... قبل ستة أشهر ويومين.

فهد نظر إلى الغابة الكثيفة أمامهم، حيث يختفي الطريق نحو المنطقة المحروقة.

ـ إذن نحن نعرف إلى أين نذهب الآن.

عادل طوى قبضته ببطء. الندم الذي كان يحمله منذ مدار عطارد تحوّل الآن إلى شيء أحدّ وأثقل. شيء يشبه العزم الممزوج بالخوف.

ـ نعم ـ قال ـ. نعرف.

ثم رفع رأسه ونظر إلى الظلال الطويلة التي تلقيها الأشجار العملاقة، كأنها أصابع إمبراطورية ميتة ما زالت تحاول الإمساك بكل من يجرؤ على دخول مملكتها القديمة.

وراء تلك الظلال كانت القلعة تنتظر.

ووراء القلعة... ربما كان مدحت ينتظر أيضاً.

أو شيء لم يعد مدحت.

الفصل الرابع

رسالة من الماضي

ظلّت أصابع عادل ملامسة للنقش وقتاً أطول مما ينبغي.

الحروف كانت محفورة بعمق في الحجر الأسود، حادة وواضحة كأنها نُقشت بالأمس لا قبل ستة أشهر. لغة الإمبراطورية القديمة التي تعلّمها بصعوبة في رحلاته السابقة كانت تتراقص تحت عينيه، وكل كلمة منها تحمل صوت مدحت نفسه.

قرأ مرة ثانية، بصوت أعلى هذه المرة، كأنه يريد أن يسمع الرفاق ما يسمعه هو في رأسه:

«إلى كابتن الفضاء... إذا قدر لك أن تصل إلى هنا.

لقد اكتشفت سراً لا يُصدَّق. أعجب شكل من الحياة يمكن تخيله.

ومخاطر هذا السر هائلة لدرجة أنني سأبادر باستقصائها وسبر كنهها بنفسي.

إذا لم أرجع... فلتعلم أن القلعة القديمة التي وراء الغابة تحمل مفتاح طاقة مذهلة لا نظير لها.»

انتهى الصوت في الهواء الرطب، وبقي الصمت يثقل على الثلاثة.

نبيل حلق أقرب إلى العمود، عيناه العدسيتان تمسحان الحروف بدقة متناهية.

ـ التوقيع مطابق لخط مدحت في المفكرة التي تركها في السفينة القديمة ـ قال بهدوء ـ. والختم الزمني... ستة أشهر ويومان وخمس ساعات. كتب هذا وهو يعرف أنه قد لا يعود.

فهد وقف ساكناً كتمثال معدني، لكن ضوء عينيه الأزرق كان يومض بسرعة أكبر من المعتاد.

ـ لماذا لم يستخدم جهاز الإرسال؟ ـ تساءل ـ. كان يستطيع أن يرسل إشارة تحذير على الأقل.

عادل هز رأسه ببطء. كان يعرف الجواب قبل أن يفكر فيه.

ـ لأنه خاف أن يسمعه أحد آخر. خاف أن تصل المعرفة إلى أيدٍ غير مناسبة. لهذا اختار اللغة الميتة، ولهذا حفرها هنا... في مكان لا يصل إليه إلا من يعرف الطريق.

مرّر يده على النقش مرة أخيرة، ثم سحبها كأن الحجر أصبح ساخناً فجأة. شعور غريب تسلل إلى صدره، مزيج من الرهبة والقداسة والخوف. المكان لم يعد مجرد أطلال. صار معبداً قديماً فتح أحد أبوابه، والباب لا يُغلق بسهولة.

رفع رأسه ونظر إلى الغابة الكثيفة التي تمتد أمامهم. الطريق إلى القلعة يمر من هناك، عبر الظلال والأشجار العملاقة، ثم إلى المنطقة المحروقة حيث تموت النباتات تحت حرارة الشعاع الشمسي اليومي.

ـ يجب أن نتحرك قبل أن يغرب الشعاع تماماً ـ قال ـ. الظلام هنا ليس عادياً.

لم يكد ينتهي من جملته حتى تجمّد نبيل في الهواء فجأة.

ـ حركة ـ همس ـ. على بعد ثلاثمئة متر تقريباً... شمال شرق. أكثر من عشرة كائنات. يتحركون بحذر شديد.

فهد استدار ببطء، مفاصله المعدنية تصدر صريراً خافتاً.

ـ سكان زوما.

عادل شعر بعضلات كتفيه تتوتر. تذكّر وجوههم من الزيارة السابقة: بشرة بيضاء كالطباشير، شعر أبيض طويل، عيون شاحبة ضبابية، وثياب من جلد بني. أحفاد الإمبراطورية الذين نسوا كل شيء إلا الخوف والأساطير.

ـ هل يقتربون؟ ـ سأل.

ـ لا ـ أجاب نبيل ـ. يتوقفون خلف الأشجار. يراقبوننا فقط... حتى الآن.

صوت بعيد جاء من الغابة. صرخة وحش مجهول، حادة وعالية، قطعت الصمت كسكين. ثم صمت أعمق.

عادل وضع يده على مسدس الليزر المعلق في حزامه، دون أن يشهره.

ـ كاه كان زعيمهم في المرة السابقة ـ قال بصوت منخفض ـ. رجل يُوثق به... أو كان كذلك. الآن لا أعرف.

فهد خطا خطوة إلى الأمام، واضعاً جسده الضخم بين رفيقيه والغابة.

ـ إذا هاجموا، سأوقفهم. حرابهم لا تؤذيني.

نبيل علّق بسرعة، لكن نبرته كانت أقل سخرية من المعتاد:

ـ المشكلة ليست في الحراب يا فهد. المشكلة في أن هؤلاء الناس يعرفون شيئاً عن القلعة لا نعرفه نحن. وهم خائفون منه بما يكفي ليدفنوا المدخل ويحرسوه.

عادل نظر مرة أخيرة إلى النقش على العمود. كلمات مدحت كانت ما تزال تلمع في ذاكرته كجمر تحت الرماد.

«أعجب شكل من الحياة يمكن تخيله...»

شعر بقشعريرة تسري في ظهره رغم حرارة الهواء.

ـ هيا ـ قال أخيراً ـ. لا ننتظرهم حتى يقرروا. نذهب إلى القلعة الآن.

سار الثلاثة في اتجاه الغابة، فهد في المقدمة، وعادل في الوسط، ونبيل يحوم فوقهما كحارس فضي صغير. خلفهم، على العمود الأسود، بقيت رسالة الماضي محفورة في الحجر، تنتظر أي قادم آخر قد يجرؤ على قراءة السر الذي دفع رجلاً إلى الاختفاء داخل الشمس.

ومن بين الأشجار العملاقة، كانت عيون شاحبة تراقبهم في صمت، وتنتظر اللحظة المناسبة.

الفصل الخامس

الحراب والظلال

لم يقطعوا أكثر من مئتي متر داخل الغابة عندما ظهرت الظلال.

خرجت من بين الأشجار العملاقة بهدوء مخيف، كأنها جزء من الضباب نفسه. رجال طوال القامة، بشرتهم بيضاء كالثلج القديم، وشعرهم الأبيض يتدلّى على أكتافهم في ضفائر متسخة. ثيابهم من الجلد البني الباهت، وفي أيديهم حراب طويلة ذات رؤوس حجرية مسنونة ومسمومة. عيونهم الشاحبة كانت تحدّق بلا انفعال، لكنها كانت تحمل شيئاً أقدم من الغضب: خوفاً مقدساً.

في المقدمة وقف كاه.

عادل تعرّف عليه فوراً رغم السنين. الزعيم الذي ساعدهم مرة، الرجل الذي كان يحمل في مشيته بقايا مجد الإمبراطورية القديمة. الآن كان وجهه أكثر نحافة، وعيناه أكثر شكّاً، والحربة في يده ترتفع ببطء نحو صدر عادل.

ـ توقفوا ـ قال كاه بصوت أجش باللغة القديمة المكسّرة ـ. هذا المكان محرّم.

عادل رفع يديه ببطء، مظهراً أنه لا يحمل سلاحاً مشهوراً.

ـ كاه... أتذكرني؟ عادل أشرف. جئت مع الروبوت والكمبيوتر الطائر من قبل. كنا أصدقاء.

كاه لم يحرّك الحربة. خلفه اصطفّ أكثر من عشرين رجلاً، حرابهم جاهزة، ووجوههم جامدة كالأقنعة.

ـ الأصدقاء لا يدخلون الأرض المحرّمة ـ رد الزعيم ـ. الأصدقاء لا يوقظون اللعنة.

نبيل حلق ببطء فوق رأس عادل، صوته الرنان يقطع الهواء الرطب:

ـ اللعنة؟ هل تتحدث عن القلعة أم عن الشعاع الذي لا يعود؟

همهمة غاضبة سرت بين الرجال. بعضهم رفع حرابه أعلى. فهد خطا خطوة إلى الأمام دون صوت، واضعاً جسده المعدني الضخم بين المجموعة والسكان. عيناه الأزرقان كانتا ثابتتين، وذراعاه متدليتين على جانبيه... لكن الجميع عرف أن تلك الذراعين تستطيعان سحق الحجارة كالتبن.

كاه نظر إلى الروبوت لحظة طويلة، ثم أعاد عينيه إلى عادل.

ـ أنت جلبت الرجل الآخر إلى هنا. العالم الذي يسأل كثيراً. دخل القلعة... وخرج مع الشعاع. ولم يعد. الآن جاء الشعاع ليأخذ غيره.

عادل شعر بقلبه ينقبض.

ـ مدحت شوقى. نعم. أنا جئت لأبحث عنه. أين هو؟

كاه هز رأسه ببطء، وشعره الأبيض تحرّك كالضباب.

ـ ذهب مع الأشعة اللامعة التي لا تعود أبداً. صار واحداً من أبناء الشمس. والآن أنت تريد أن تتبعه. ستحلّ عليكم اللعنة نفسها. ستخرجون على طول الشعاع... ويختفي كل أثر لكم إلى الأبد.

صمت ثقيل سقط على المكان. حتى أوراق الأشجار العملاقة توقفت عن الحركة.

فهد تكلم لأول مرة، صوته العميق يهز الهواء:

ـ لن نختفي. ولن ندعكم تمنعوننا. صديقنا هناك، وسنعيده.

كاه ضحك ضحكة قصيرة جافة.

ـ الصديق الذي دخل القلعة لم يعد صديقاً. صار شيئاً آخر. شيئاً ينظر إلى الشمس كأنها بيتُه. وإذا أعدتموه... سيهرب منكم مرة أخرى. لأن الجسد سجن، والشمس حرية.

عادل تقدّم خطوة واحدة فقط. الحراب ارتفعت جميعاً في لحظة واحدة.

ـ أريد أن أرى القلعة بنفسي ـ قال بهدوء ـ. إذا كان مدحت قد مات، سأعود. إذا كان حيّاً... سأحاول إعادته. لا نريد حرباً معكم.

كاه حدّق فيه طويلاً. ثم، ببطء، خفض حرابته قليلاً.

ـ الحرب ليست معنا. الحرب مع ما ينتظركم هناك. اذهبوا إن شئتم. لكن اعلموا... أن الأرض المحرّمة لا ترحم من يدخلها مرتين.

رفع يده، وتراجع رجاله خطوة إلى الوراء، ثم خطوة أخرى، حتى ذابوا بين الأشجار كالضباب الذي جاءوا منه. بقي كاه آخرهم. نظر إلى عادل نظرة أخيرة، وفي عينيه شيء يشبه الشفقة.

ـ الوداع يا غريب ـ قال ـ. أتمنى أن يتذكّرك أحد بعد أن يأخذك الشعاع.

ثم اختفى.

عندما صار المكان فارغاً من جديد، أطلق نبيل صفيراً إلكترونياً خافتاً.

ـ ودودون كما هو متوقع. على الأقل لم يطلقوا الحراب... بعد.

فهد ظلّ واقفاً في وضع الدفاع بضع ثوانٍ إضافية، ثم استرخى قليلاً.

ـ إنهم خائفون أكثر مما هم عدوانيون. الخوف أخطر أحياناً.

عادل نظر إلى الطريق المظلم الذي يمتد أمامهم نحو المنطقة المحروقة. كلمات كاه كانت ما تزال ترن في أذنيه:

«صار واحداً من أبناء الشمس... الجسد سجن، والشمس حرية.»

مرّر لسانه على شفته الجافة، ثم قال بصوت منخفض:

ـ هيا نسرع. قبل أن يتغيّر رأيهم.

وسار الثلاثة أعمق في الغابة، بينما الظلال الطويلة للأشجار العملاقة تراقبهم في صمت، وكأن الإمبراطورية الميتة نفسها تنتظر لترى من سينجو هذه المرة من لعنة أبنائها الناريين.

الفصل السادس

الانهيار الأرضي

الغابة انتهت فجأة كأن أحداً قطعها بسكين ساخن.

توقف الثلاثة على حافة المنطقة المحروقة. التربة هنا سوداء ومتشققة، والصخور تتصاعد منها خيوط رفيعة من الدخان حتى في غياب الشعاع المباشر. الهواء صار أثقل وأحرّ، ورائحة الكبريت والمعادن المحروقة ملأت الرئتين. في الأفق القريب، كانت التلال القاحلة ترتفع بألوان زيتونية داكنة مائلة إلى السواد، خالية من أي نبات إلا بقايا يابسة تشبه العظام.

ـ هنا يمر الشعاع مرة كل دورة ـ قال نبيل وهو يمسح المنطقة بأجهزته ـ. يدخول من الفتحة العلوية في قشرة الكويكب، يقطع الجوف كله، ثم يخرج من الجهة المقابلة. أي شيء يقف في طريقه يحترق... أو يتحوّل.

عادل لم يرد. كان ينظر إلى منحدر التل الأقرب. شيء فيه لم يكن طبيعياً.

ـ انظروا إلى ذلك ـ قال وهو يشير ـ. الانهيار الأرضي.

كتلة ضخمة من التربة والصخور الحديثة كانت تغطي جانب التل كالجرح الطازج. لكنها لم تكن عشوائية. الخطوط الخارجية كانت منتظمة أكثر مما ينبغي: قبة وسطى واضحة رغم التراب، وجناحان يمتدان يميناً ويساراً بتماثل غريب.

فهد اقترب أولاً، ووضع يده المعدنية الضخمة على التربة.

ـ هذا ليس انهياراً طبيعياً ـ قال ـ. أحدهم دفع الصخور عمداً ليغطي شيئاً تحته.

نبيل حلق فوق الكتلة المتراكمة، عيناه تمسحان التضاريس بدقة.

ـ الشكل العام... مبنى. قبة مركزية وجناحان. الطراز المعماري يطابق أطلال المدينة القديمة تماماً. هذه هي القلعة.

عادل شعر بقلبه يدق أسرع. تذكّر رسالة مدحت: «القلعة القديمة التي وراء الغابة».

ـ ابدأوا الحفر ـ أمر بهدوء.

عملوا بسرعة. فهد يستخدم قوته الهائلة لرفع الصخور الكبيرة ورميها جانباً، وعادل ونبيل يزيلان التربة السائبة بالمعاول الصغيرة التي أحضروها من السفينة. العرق كان يسيل على وجه عادل رغم جهاز التبريد في بدلة الفضاء الخفيفة، والغبار الأسود يلتصق بملابسه كالكفن.

بعد أقل من ساعة، ظهرت الحجارة الأولى.

أقواس علوية منحوتة بدقة مدهشة، رغم مرور القرون. ثم جزء من الجدار السميك المصنوع من حجر أسود مصقول لم يتأثر بالزمن. كلما أزاحوا المزيد من التراب، ظهرت تفاصيل أكثر: نقوش حلزونية معقدة، رموز فلكية، ووجوه مجردة تحدّق إلى الخارج بعيون فارغة.

عادل توقف لحظة وهو يمسح العرق عن جبينه. وضع كفه على الجدار البارد.

شعر بشيء غريب.

ليس اهتزازاً، ولا حرارة. شيء أعمق. كأن الحجر يتنفّس ببطء شديد جداً، أو كأن المكان كله يراقبهم من الداخل. الإمبراطورية القديمة لم تمت تماماً. بقيت هنا، في هذه الجدران، تنتظر من يفتح الباب مرة أخرى.

ـ هل تشعرون بهذا؟ ـ همس.

نبيل اقترب.

ـ بماذا؟ القراءات طبيعية. لا طاقة غريبة، لا إشعاع إضافي.

ـ لا أقصد الأجهزة ـ قال عادل ـ. أقصد... المكان نفسه. كأنه حي.

فهد رفع رأسه من الحفر ونظر إليه.

ـ الحجارة لا تحيا يا كابتن. لكن الذكريات تفعل. وهذا المكان مليء بالذكريات.

واصلوا الحفر. أخيراً ظهرت النافذة الثلاثية العلوية التي ذكرتها مفكرة مدحت في السفينة القديمة. الأقواس كانت سليمة تقريباً، والفتحة واسعة بما يكفي لدخول رجل.

عادل كان أول من تسلّق إلى الداخل.

هبط في شبه ظلمة. المصباح المثبت على حزامه أضاء بهواً دائرياً واسعاً، سقفه مرتفع جداً، وجدرانه مغطاة بنقوش أكثر تعقيداً من أي شيء رأوه في المدينة. في الوسط، تحت طبقة رقيقة من الغبار، كانت أرضية مصقولة ما تزال تلمع قليلاً.

ـ إنها أكبر مما توقعت ـ قال وهو ينظر حوله ـ. وأقدم.

نبيل دخل خلفه، ثم فهد الذي اضطر إلى الانحناء قليلاً ليمر من الفتحة.

وقف الثلاثة في صمت داخل القلعة التي دُفنت عمداً، والتي فتحت عينيها الآن بعد ستة أشهر من الظلام.

في أعماق المبنى، بعيداً عن نور مصابيحهم، كان شيء ينتظر.

شيء تركه مدحت خلفه.

وشيء أقدم من مدحت بكثير.

الفصل السابع

مكان الولادة

تقدّموا ببطء داخل البهو الدائري.

ضوء مصابيحهم كان يقطع الظلام كسكاكين بيضاء، ويكشف عن جدران منحوتة بعمق برموز حلزونية ووجوه مجردة وأشكال نجوم لم تعد موجودة في سماء هذا العصر. الغبار كان سميكاً على الأرضية، لكنه لم يغطِ كل شيء. في الوسط، بدا واضحاً أن أحداً مرّ من هنا منذ أشهر قليلة: آثار أقدام بشرية، وبعض الحجارة المزاحمة عمداً.

ـ مدحت ـ همس عادل.

ساروا عبر ممر ضيق يهبط قليلاً، ثم دخلوا الحجرة الوسطى. هنا توقفوا جميعاً في وقت واحد.

في الجدار المقابل، داخل كوات عميقة محفورة بدقة، كانت هناك مجموعتان من الأجهزة لم يرَ أحد مثلها من قبل.

المجموعة الأولى تلمع بوهج ذهبي خافت حتى في الظلام، كأنها ما تزال تحتفظ بضوء الشمس داخلها. قاعدتان عريضتان من معدن قاتم لا يصدأ، وفوق كل قاعدة ملفّان طويلان من بلور شفاف يرتفعان كقامتي رجلين، محاطين بإطارات من مادة تشبه البلاستين لكنها أكثر نقاءً. بينهما منصة مستطيلة فارغة.

المجموعة الثانية كانت أغمق: لون أخضر ضارب إلى الزرقة، ووهجها بارد وكئيب، كأنها تمثل الجانب الآخر من المرآة.

فوق الكوات، محفورة في الحجر الصلب الذي لا يؤثر فيه الزمن، كانت هناك كتابات تحذيرية.

عادل اقترب ورفع مصباحه وقرأ بصوت مرتفع:

«ليحذر كل من يتقدم خطوة واحدة بعد هذا المدخل... فالموت هو ثمن الحياة الأبدية.»

ثم على الأجهزة المعتمة:

«الموت مدخل مزدوج... ففي أي جانب منه توجد الحياة الحقيقية؟»

صمت ثقيل ملأ الحجرة.

نبيل حلق ببطء بين الملفين الذهبيين، عيناه تمسحان كل تفصيلة.

ـ هذه... ليست مجرد آلات ـ قال بصوت خافت غير معتاد ـ. هذه أدوات تحويل. طاقة هائلة مركّزة هنا. القراءات تتجاوز أي شيء سجلته من قبل.

فهد وقف أمام المجموعة الخضراء، رأسه يميل قليلاً.

ـ والثانية لإعادة التحويل على الأرجح. الذهاب... والعودة.

عادل لم يكن يسمعها تماماً. كان ينظر إلى زاوية الحجرة، حيث تكوّمت ملابس على الأرض بجانب حقيبة صغيرة وأدوات شخصية.

اقترب وانحنى.

الملابس كانت ملابس مدحت. المعطف الرمادي الذي يحبه، القميص الأزرق، الحذاء. كلها مطوية بعناية غريبة، كأنها خُلعت بهدوء وليس في عجلة. وعلى الياقة، بطاقة اسم ما تزال مثبتة: **د. مدحت شوقى**.

بجانب الملابس كانت المفكرة السوداء السميكة.

رفعها عادل بيديه اللتين كانتا ترتعشان قليلاً. فتحها. خط مدحت المألوف ملأ الصفحات: ملاحظات، رسومات للأجهزة، ترجمات طويلة للنقوش على الجدران، وتواريخ.

في الصفحة الأولى بعد الغلاف كتب:

«اليوم فهمت. هذه ليست أسطورة. هذه تقنية. تحويل المادة الحية إلى شكل متماسك من الطاقة الشمسية... قوة حيوية حرة تذهب إلى قلب الشمس وتعود. أبناء الشمس حقيقيون. وأنا... سأصبح واحداً منهم.»

عادل قلب الصفحات بسرعة. وجد فصلاً كاملاً بعنوان: **ترجمة تعليمات أجهزة التشغيل**.

ـ هنا كل شيء ـ قال بصوت أجش ـ. كيف نشغّلها. كيف نذهب. وكيف... نعود.

نبيل اقترب حتى كاد يلامس المفكرة.

ـ قرأها كلها قبل أن يدخل. ضبط الأجهزة بدقة. كان ينوي العودة.

ـ لكنه لم يعد ـ همس فهد.

عادل أغلق المفكرة ببطء، وظلّ ممسكاً بها كأنها آخر خيط يربطه بصديقه.

نظر إلى المنصة الفارغة بين الملفين الذهبيين. تخيّل مدحت يقف هناك، يخلع ملابسه بهدوء، ثم يخطو إلى الأمام... ويختفي في وهج ذهبي.

شعر مرة أخرى بذلك الإحساس الغريب الذي راوده عند الجدار الخارجي: أن المكان حي. وأن الأجهزة نفسها تنتظر. كأنها عرفت أنه جاء، وأن الدور التالي قد حان.

ـ سنقرأ التعليمات كلها أولاً ـ قال أخيراً، صوته ثابت رغم العاصفة التي تدور داخله ـ. كل كلمة. كل تحذير. ثم نقرر.

جلس على الأرض المتسخة، وفتح المفكرة على ركبتيه. نبيل حلق فوق كتفه مباشرة، وفهد وقف حارساً عند المدخل، ظهره إلى الرفيقين وعيناه على الظلام الذي جاءوا منه.

خارج القلعة، في الغابة البعيدة، كانت صرخة وحش مجهول ترتفع مرة أخرى وتموت.

أما داخل «مكان الولادة»، فقد بدأ السر الذي قتل إمبراطورية كاملة يفتح عينيه من جديد.

الفصل الثامن

ثمن الحياة الأبدية

جلس عادل على الأرض المتسخة، والمفكرة السوداء مفتوحة على ركبتيه. ضوء المصباح كان يرتجف قليلاً على الصفحات المكتوبة بخط مدحت المتأني. نبيل حلق فوق كتفه مباشرة، وفهد ظلّ عند المدخل كحارس صامت.

بدأ عادل القراءة من البداية.

من مفكرة د. مدحت شوقى – اليوم السابع عشر بعد الهبوط

«الوحدة هنا أثقل مما توقعت. الغابة تتكلم في الليل بأصوات لا أفهمها، والسكان يراقبونني من بعيد لكنهم لا يقتربون. وجدت القلعة أخيراً تحت الانهيار الأرضي. كيف عرفوا أن يدفنوها؟ كأنهم يخافون منها أكثر مما يخافون من الموت.

الأجهزة... يا إلهي. الذهبية منها ما تزال تتوهج كأنها حية. قرأت النقوش. ترجمة صعبة، لكن المعنى واضح: تحويل الجسد إلى شكل طاقة متماسكة. شكل يستطيع أن يدخل الشمس نفسها ويعود. أبناء الشمس... ليسوا أسطورة. كانوا علماء. ثم خافوا مما صنعوا فحرّموا الأجهزة وأغلقوا المختبر إلى الأبد.»

عادل توقف لحظة. شعر بشيء بارد يسري في عموده الفقري. مدحت كان يكتب بحماس العالم الذي وجد ضالته، لكن بين السطور كان هناك تردد خفي.

تابع:

اليوم الثاني والأربعون

«قضيت أسابيع أترجم كل نقش، أختبر كل دائرة صغيرة دون أن ألمس المنصة الرئيسية. التعليمات كاملة تقريباً. الذهاب سهل. العودة... ممكنة نظرياً إذا عكست المجال في الوقت المناسب. لكن النقوش تحذّر: "الموت مدخل مزدوج. ففي أي جانب منه توجد الحياة الحقيقية؟"

جلست ساعات أمام الملفين الذهبيين. تخيّلت نفسي أخلع ملابسي، أخطو إلى المنصة، ثم... أتحرر. لا جسد يثقلني، لا حدود، لا زمن. فقط معرفة الشمس من الداخل.

ثم تذكرت عادل ونبيل وفهد. تذكرت الوعد الذي قطعته على نفسي أن أعود. هل أستطيع أن أعود بعد أن أرى ما هناك؟»

نبيل همس فجأة:

ـ كان يعرف الخطر. وكان يعرف الإغراء أيضاً.

عادل لم يرد. قلب الصفحة. الخط هنا أصبح أسرع، أقل انتظاماً.

اليوم الأخير – قبل الدخول

«قررت.

لا يمكن لعالم حقيقي أن يقف على الحافة ولا يقفز. سأدخل. سأرى. سأسجّل كل شيء ثم أعود. الأجهزة مضبوطة بدقة. مسار العودة جاهز.

إذا قرأت هذه الكلمات يا عادل... فاعلم أنني ذهبت لأنني لم أستطع ألا أذهب. وأنني سأعود. أقسم.

لكن إذا لم أعد... فاعلم أن الثمن كان يستحق. الحياة الأبدية داخل النار أنقى من أي حياة أخرى.»

أغلقت المفكرة على آخر جملة.

عادل رفع رأسه. وجهه كان شاحباً تحت ضوء المصباح، وعيناه الرماديتان تلمعان بشيء قاسٍ وواضح.

ـ قرأ كل شيء ـ قال بصوت منخفض ـ. عرف الثمن. ودفعه.

فهد تحرك من مكانه لأول مرة.

ـ والآن؟ هل ندمر الأجهزة ونعود؟ أم...؟

نبيل أجاب قبل أن يكمل الروبوت:

ـ هو لن يعود بدون محاولة. نحن نعرفه.

عادل وقف ببطء. المفكرة ما تزال في يده. نظر إلى المنصة الفارغة بين الملفين الذهبيين، ثم إلى المجموعة الخضراء المعتمة التي تمثّل طريق العودة.

الصراع الداخلي كان قصيراً هذه المرة. الندم، والصداقة، والفضول العلمي الذي ورثه من مدحت نفسه... كلها انصهرت في قرار واحد حاد كالنصل.

ـ سأذهب وراءه ـ قال ـ. سأجده. وسأعيده. أو سأموت معه هناك.

نظر إلى رفيقيه واحداً بعد الآخر.

ـ ابقيا هنا. احرسوا الأجهزة. إذا لم أعد خلال... سمّياها دورة شمسية كاملة، دمّرا كل شيء واذهبا. لا تدعوا أحداً آخر يستخدمها.

فهد تقدم خطوة.

ـ كابتن... هذا جنون.

ـ أعرف ـ ابتسم عادل ابتسامة صغيرة حزينة ـ. لكنه الجنون الوحيد الذي يستحق.

وضع المفكرة على حافة المنصة، وبدأ يخلع سترته بهدوء. نبيل صمت هذه المرة. لم يسخر. فقط حلق أقرب قليلاً، كأنه يريد أن يحفظ صورة صاحبه الأخيرة وهو ما يزال بشراً.

عادل وقف عارياً تقريباً على المنصة الباردة. رفع رأسه ونظر إلى الملفين الذهبيين اللذين بدأ وهجهما يزداد كأنهما استشعرا حضوره.

همس، كأنه يخاطب الرجل الذي سبقه:

ـ انتظرني يا مدحت. أنا قادم.

ثم مدّ يده إلى لوحة التشغيل التي تركها صديقه مضبوطة، وضغط على التسلسل الأخير.

الضوء الذهبي انفجر.

الفصل التاسع

الانسلاخ

الضوء الذهبي لم يكن ضوءاً.

كان شيئاً يلمس الجلد أولاً، ثم يتسلل تحته، ثم يذوب فيه. عادل شعر به كحرارة ناعمة في أطراف أصابعه، ثم في راحتيه، ثم صاعداً في ذراعيه كسائل حي. حاول أن يتنفس... فاكتشف أن التنفس لم يعد ضرورياً.

ارتعشت عضلاته مرة واحدة عنيفة. أراد أن يصرخ، لكن الصوت اختفى قبل أن يصل إلى حلقه. بدلاً منه جاء إحساس غريب: كأن كل خلية في جسده تُحلّل نفسها بإرادتها. الإلكترونات، البروتونات، النيوترونات... ثم ما هو أصغر. الكواركات نفسها بدأت تتراقص وتنفصل.

الذعر جاء أولاً.

رأى يديه تذوبان أمام عينيه إلى ضباب ذهبي لامع. شعر بوزنه يختفي، بالأرض تبتعد، بالجدران الحجرية للقلعة تصير شفافة كالضباب. حاول أن يتمسك بشيء... بأي شيء... فوجد أنه لم يعد لديه أصابع.

ثم جاء الفرح.

فرح هائل، نظيف، مرعب في نقائه. الجسد الذي حمله طوال حياته — بآلامه وتعبه وحدوده — انفتح مثل ثمرة ناضجة. صار حراً. بلا عظام تثقل، بلا جلد يحبس، بلا زمن يدق داخل الصدر كساعة قديمة.

أحس بنبيل وفهد للحظة أخيرة: الروبوت يقف جامداً عند المدخل، والكمبيوتر الطائر يحوم في الهواء كأنه يريد أن يتبعه. ثم اختفيا خلف حجاب من نور.

صار كياناً من ضوء وحرارة وإرادة.

الشمس نادته.

شعر بالشعاع يدخل من الفتحة العلوية في قشرة الكويكب كالنهر الجبار. اندفع نحوه بلا تردد. السرعة لم تكن سرعة. كانت تحولاً في طبيعة المكان نفسه. جدران زوما ذابت حوله، والغابة والبحيرة الصفراء والأطلال صارت خلفه في لحظة واحدة.

خرج.

الفضاء الأسود امتلأ فجأة بالنور. قرص الشمس أمامه لم يعد قرصاً. صار محيطاً بلا شواطئ، محيطاً من نار حية تتنفس وتدور وتغني بصوت لا تسمعه الآذان بل يسمعه الكيان كله.

عادل — أو ما كان عادل — اندفع على طول الشعاع كسهم من ذهب سائل. الحرارة المميتة التي كانت تقتل البشر صارت الآن غذاءً. امتصها، نما عليها، رقص داخلها.

نظر إلى خلفه مرة واحدة. رأى كويكب زوما صغيراً أسود معلقاً كحبة رمل. ورأى السفينة «الشهاب» أصغر منه. ثم نسيهما.

لم يعد هناك «خلف».

لم يعد هناك إلا الأمام: قلب الشمس الذي ينتظر، والحرية المطلقة التي تذوّقها للمرة الأولى، والرجل الذي جاء من أجله... والذي صار الآن جزءاً من هذه النار الأبدية.

اندفع أعمق.

والشمس فتحته ذراعيها.

الفصل العاشر

محيطات اللهب

لم يكن هناك سطح.

عادل اكتشف ذلك في اللحظة التي عبر فيها الطبقة الخارجية. ما كان يراه من بعيد كقرص متوهج صار الآن محيطاً بلا قاع ولا سقف، محيطاً من غازات متأينة تتحرك بسرعات تفوق الخيال. تيارات حمراء قرمزية هادرة تدفعه وتسحبه وتديره كريشة في عاصفة.

الحواس الجديدة فتحت دفعة واحدة.

لم يعد يرى بالعينين. صار يرى بكل كيانه. الألوان لم تعد ألواناً بشرية. رأى البنفسجي الخافت يتحوّل إلى أحمر متوهج فأقوى، ثم إلى درجات ماسية ساطعة لا اسم لها في أي لغة. سمع — لا بأذنين — الهدير المكتوم للاندماج النووي: رعد مستمر يأتي من الأعماق، صوت الهيدروجين وهو يموت ليولد الهليوم، صوت الطاقة وهي تُولد بالملايين من الأطنان في كل ثانية.

البقع الشمسية ظهرت تحته كقارات داكنة.

مناطق ظل مركزية سوداء تقريباً، محاطة بشبه ظل أكثر إضاءة، تدور ببطء هائل داخل الأتون. اقترب من إحداها. شعر بالدوامة المغناطيسية تمزّق حوله، بالجسيمات المشحونة تصطدم بكيانه الجديد فتمنحه وخزاً لذيذاً بدل الألم. تغذّى عليها. نما.

ثم جاءت الألسنة.

انفجارات مفاجئة من اللهب ارتفعت آلاف الكيلومترات دفعة واحدة، أنهار من نار مندفعة نحو الخارج بسرعة الضوء تقريباً. واحد منها التقطه ورفعه عالياً فوق الهالة. للحظة رأى المجموعة الشمسية كلها من فوق: الكواكب الصغيرة المتلألئة كحبات غبار، وزوما كنقطة سوداء بعيدة، والفضاء الأسود اللامتناهي.

الضغط لم يعد ضغطاً.

في أعماق أعمق، حيث المادة أكثر كثافة، شعر بما يعادل ملايين الأطنان على كل سنتيمتر... لكنه لم يسحقه. كيانه الطاقي مرّ عبرها كموجة تمر عبر موجة. القوة كانت هائلة لدرجة أنها صارت جمالاً. جمالاً مرعباً، نقياً، لا يمكن لكائن بشري أن يحتمله ثانية واحدة دون أن يجن أو يموت.

تذكر جسده القديم فجأة.

الوزن، الألم في الظهر بعد يوم طويل، العرق، الحاجة إلى النوم والطعام والهواء. كلها بدت الآن كسجن ضيق جداً، كحلم سيئ من عالم أصغر. الحرية هنا كانت مطلقة. الإرادة تتحرّك فيصبح الحركة. الفكرة تتشكل فيصبح الاتجاه.

ضحك... أو ما يشبه الضحك في هذا الشكل الجديد.

اندفع أعمق نحو المركز، حيث الضجيج يزداد والوهج يصير أبيض تقريباً. كان يبحث. ينادي باسم لم يعد يحتاج إلى صوت:

مدحت...

مدحت شوقى...

هل أنت هنا؟

والشمس كلها ردّت عليه بهديرها الأزلي، كأنها تقول: كل شيء هنا. وكل من جاء... بقي.

الفصل الحادي عشر

توجا

الصوت لم يأتِ من اتجاه.

جاء من كل مكان دفعة واحدة، كأنه جزء من الهدير النووي نفسه، ثم تميّز وصار واضحاً داخل كيان عادل:

ـ أنت جديد هنا... وجسدك القديم ما يزال يذكر اسمه.

عادل توقف. التيارات النارية دارت حوله كأنها تنتظر.

ـ من أنت؟

تشكّل أمامه — أو داخله — حضور أكبر وأكثر كثافة. لم يكن له شكل ثابت، بل موجة من ضوء ذهبي أقدم وأكثر هدوءاً من ألسنة اللهب المحيطة. حضور يعرف نفسه منذ زمن لا يُقاس بالسنوات.

ـ كنت أُدعى توجا. كبير علماء إمبراطورية زوما... قبل أن تسقط. قبل أن نصبح ما نحن عليه الآن.

عادل شعر بمزيج غريب من الرهبة والفضول.

ـ أنت... واحد من أبناء الشمس الأصليين.

ـ نعم. نحن الذين صنعنا الأجهزة. نحن الذين فتحنا الباب. ونحن الذين أغلقناه بعد فوات الأوان.

الصمت بين الهدير كان ثقيلاً. عادل سأل:

ـ لماذا سقطت الإمبراطورية؟

توجا تحرّك كأن موجة تبتسم.

ـ لأن المعرفة وصلت إلى حدّ لم يعد الجسد يحتمله. رأينا قلب الشمس. عرفنا كيف نولد الطاقة من لا شيء تقريباً. صرنا آلهة صغاراً... ثم اكتشفنا أن الآلهة تشعر بالملل. وبالوحدة. وبالخوف من أن تفقد ما صارت إليه.

توقف قليلاً، ثم تابع بصوت أعمق:

ـ بعضنا رفض العودة إلى الأجساد. قال إن السجن انتهى. البعض الآخر خاف. رأى أن الخلود بلا نهاية يعني نهاية المعنى. فانقسمنا. حرب أهلية داخل النار نفسها. الذين بقوا في الأجساد حطّموا المختبرات، دفنوا القلاع، وحرّموا الاسم. صار أبناء الشمس لعنة تُروى للأطفال ليناموا خائفين.

عادل استمع وهو يشعر بكل كلمة تهتز داخل كيانه الجديد.

ـ ومدحت؟ هل رأيته؟

ـ الرجل الذي جاء قبلك بستة أشهر شمسية؟ نعم. وصل إلى هنا بفضول العالم وطموح المستكشف. تحدثت معه طويلاً. كان متعطشاً. أراد أن يعرف كل شيء دفعة واحدة. والآن هو أعمق مني... أقرب إلى المركز.

ـ أريد أن أجده. أريد أن أعيده.

توجا ضحك هذه المرة — ضحكة بلا صوت لكنها لامست عادل كحرارة إضافية.

ـ تعيده؟ إلى ماذا؟ إلى اللحم والعظم والموت البطيء؟ إلى الحاجة إلى الهواء والماء والنوم؟ بعد أن ذاق هذا؟ أنت نفسك... هل ما زلت تريد العودة حقاً؟

السؤال سقط كحجر في محيط اللهب.

عادل تردد. الحرية التي يشعر بها الآن كانت أقوى من أي شيء عرفه. القوة، المعرفة المباشرة للاندماج، الإحساس بأن الزمن لم يعد سيداً عليه... كلها كانت إغراءً هائلاً.

ـ صديقي ينتظرني هناك في الأعلى — قال أخيراً — في جسد آلي وكمبيوتر طائر. وعدته.

ـ الوعود تُصنع في عالم الأجساد — رد توجا بهدوء —. هنا... تتبخر. المعرفة الأبدية لا تترك مكاناً كثيراً للصداقات القديمة. سترى. كلما اقتربت من المركز، كلما قلّ تذكرك لما كنت عليه.

الحضور الذهبي بدأ يبتعد قليلاً، كأنه يشير إلى الطريق إلى الأسفل.

ـ اذهب إن شئت. مدحت هناك. لكنه لم يعد الرجل الذي عرفته. وربما... أنت أيضاً لن تعود كما كنت.

ثم ذاب توجا في التيارات النارية، تاركاً عادل وحده مرة أخرى وسط محيطات اللهب.

والسؤال الذي تركه خلفه ظلّ يرن:

هل ما زلت تريد العودة حقاً؟

الفصل الثاني عشر

في المركز

النزول لم يكن نزولاً.

كان انغماساً أعمق في كثافة متزايدة، حيث الهدير يتحوّل إلى صمت مكتوم ثقيل، والوهج يصير أبيض ناصعاً يكاد يُعمي حتى الكيانات الطاقية. عادل شعر بالمادة حوله تصير أثقل بملايين المرات، بالبروتونات تندفع نحو بعضها بقوة لا تُصدَّق، ثم... تندمج.

هنا، في القلب الحقيقي، كان الهيدروجين يموت ليولد الهليوم. أربع نوى تندمج في واحدة، والفرق في الكتلة يتحوّل إلى طاقة خالصة تنطلق في كل اتجاه. عادل رآها — لا بعينين — بل بكل وجوده: وميضاً متكرراً لا نهائياً، ميلاداً مستمراً للنور من المادة، معجزة تتكرر مليارات المرات في كل ثانية منذ مليارات السنين.

الجمال كان مرعباً لدرجة أنه كاد ينسى لماذا جاء.

ثم رآه.

حضور مألوف رغم التحوّل. كثافة ضوء أكثر تركيزاً من التيارات المحيطة، لها طعم ذاكرة قديمة: صوت ضحك في حانة مريخية، يد على الكتف، أسئلة لا تنتهي عن الكون.

ـ مدحت.

الحضور تحرّك. اقترب.

ـ عادل... وصلت أخيراً.

لم يكن صوت مدحت القديم تماماً. كان أعمق، أوسع، كأن المجرة كلها تتكلم من خلاله. لكن النبرة كانت هي: الفضول الهادئ، والعناد اللطيف.

ـ جئت لأخذك — قال عادل —. الأجهزة ما تزال تعمل. نستطيع العودة.

صمت طويل امتلأ بهدير الاندماج.

ثم قال مدحت:

ـ أعود؟ إلى ماذا يا صديقي؟ إلى الجسد الذي يؤلمني إذا جلست طويلاً؟ إلى الحاجة إلى النوم كل يوم كحيوان؟ إلى الموت الذي ينتظر في نهاية الطريق مهما طال؟ هنا... أنا أعرف. أعرف كيف تُولد الطاقة. أعرف كيف تموت النجوم. أعرف أن الزمن وهم جميل صنعناه لأننا كنا خائفين من اللانهاية.

عادل شعر بالكلمات تهتز داخله.

ـ المعرفة ليست كل شيء. الإنسانية... الصداقة... المعنى الذي نصنعه في وقت محدود. هذا ما يجعلنا أكثر من مجرد طاقة.

ـ الإنسانية؟ — رد مدحت بشيء يشبه الحنان والأسف معاً —. الإنسانية كانت سجناً جميلاً. كنا نحب القيود لأننا لم نعرف الحرية. الآن أعرف. الخلود ليس فراغاً يا عادل. الخلود امتلاء مطلق. كل سؤال يجيب نفسه. كل فضول يُروى.

اقترب أكثر حتى اختلط كياناهم للحظة.

ـ انظر حولك. هذا هو المعنى. هذا هو الأصل. كل نجمة في السماء تفعل ما نفعله الآن. نحن لم نغادر الإنسانية... نحن عدنا إلى ما كانت عليه المادة قبل أن تتجمّد في أشكال مؤقتة.

عادل تردد. الإغراء كان هائلاً. الحرية، المعرفة المباشرة، القوة التي لا تنتهي... كلها كانت تغني داخله أغنية أقدم من اللغة.

ـ ونبيل وفهد؟ — همس —. والوعد؟

ـ الوعود تُصنع للأجساد الخائفة — قال مدحت بهدوء —. هنا لا خوف. ابقَ معي. سنرى معاً كيف تموت هذه الشمس بعد خمسة مليارات سنة، وكيف تولد نجوم جديدة من رمادها. سنكون جزءاً من الدورة الأبدية.

الصمت عاد. الاندماج النووي واصل معجزته المحيطة بهما بلا توقف.

عادل شعر بنفسه ينقسم إلى نصفين: نصف يمدّ يده نحو صديقه ليمسك به ويعود، ونصف آخر يريد أن يذوب تماماً في هذا النور ولا يعود أبداً.

والشمس انتظرت قراره بصمت اللهب.

الفصل الثالث عشر

الإغراء

مدحت لم يرد فوراً.

كيانه الطاقي ارتجف مرة واحدة خفيفة، كأن ذكرى قديمة لم تمت تماماً لمسته من الداخل. عادل شعر بذلك الارتجاف وتمسّك به كآخر خيط.

ـ أنت لم تنسَ — قال بصوت منخفض لكنه واضح داخل الهدير —. ما زال هناك شيء من الرجل الذي كان يضحك معنا في السفينة. الذي كان يربت على كتف فهد وينسى أنه معدن. الذي كان يسأل نبيل أسئلة فلسفية في منتصف الليل.

مدحت ابتعد قليلاً.

ـ بقايا فقط. مثل طعم حلم بعد الاستيقاظ. كلما بقيت هنا أطول... كلما صارت أضعف.

ـ إذن ارجع الآن قبل أن تختفي تماماً. الأجهزة جاهزة. المجموعة الخضراء تنتظر. نستطيع أن نعود معاً في نفس الشعاع. نغلق الباب خلفنا ونترك هذا المكان للأبد.

صمت. ثم جاء صوت مدحت أكثر خفوتاً:

ـ وأخسر كل هذا؟ المعرفة التي لا تنتهي؟ الإحساس بأنني جزء من قلب الكون لا مجرد مراقب على سطحه؟ أنت جربت الحرية يا عادل... هل تستطيع حقاً أن تعود إلى السجن وأنت راضٍ؟

قبل أن يجيب عادل، ظهرت الحضور الأخرى.

خرجت من التيارات الأعمق كأنها كانت تراقب منذ البداية. عشرات، ثم مئات من الكيانات الضوئية بدرجات مختلفة من الكثافة واللون. بعضها قديم جداً مثل توجا، وبعضها أحدث، بعضها ما يزال يحمل أطيافاً باهتة من أجساد بشرية سابقة. تحلّقوا حول الاثنين في دائرة واسعة صامتة.

واحد منهم اقترب — حضور ذهبي داكن — وقال بصوت يشبه الرعد المكتوم:

ـ الجديد يريد أن يعيد القديم إلى القفص. هذا يحدث دائماً في البداية.

آخر أضاف:

ـ الجسد ينادي. الصداقة تنادي. ثم يصمت النداء. ابقَ معنا.

مدحت نظر إلى الدائرة المحيطة، ثم إلى عادل. صراعه الداخلي صار مرئياً تقريباً: موجات من الضوء تتصارع داخله، أجزاء تريد البقاء وأجزاء ما تزال تتذكر.

عادل مدّ كيانه نحوه أكثر.

ـ لا تستمع إليهم فقط. استمع إلى نفسك. هل تريد حقاً أن تنسى اسمك؟ أن تنسى الوجه الذي كان لك؟ أن تصبح مجرد موجة أخرى في هذا المحيط؟ المعنى يا مدحت يصنعه الحد. الخلود بلا نهاية يمحو الفرق بين الوجود والعدم.

مدحت ارتجف بقوة هذه المرة.

للحظة بدت الذكريات أوضح: وجه عادل في الحانة المريخية، صوت نبيل الساخر، يد فهد المعدنية الكبيرة وهي تمسك صورة صانعته بحذر. ثم جاءت موجة أقوى من الإغراء: معرفة كيف ستموت المجرة بعد تريليونات السنين، الإحساس بالاندماج النووي كأنه نبض قلبه الجديد، الحرية المطلقة من الألم والخوف والموت.

الحضور الأخرى اقتربت أكثر، كأنها تحاول امتصاصه داخل الدائرة.

ـ ابقَ — همسوا جميعاً كصوت واحد.

عادل شعر أن اللحظة الحاسمة قد حانت. إما الآن... أو لن تعود الفرصة.

ـ مدحت شوقى — ناداه باسمه الكامل، بالقوة كلها التي يملكها —. أنا لا أطلب منك أن تختار الجسد إلى الأبد. أطلب منك أن تختار العودة مرة واحدة. أن تنظر في عيون من أحبوك قبل أن تقرر النسيان. إذا بعد ذلك أردت الرجوع إلى هنا... فلن أمنعك. لكن الآن... تعال.

الصمت الثقيل ملأ قلب الشمس.

مدحت نظر إلى صديقه، ثم إلى الدائرة المتوهجة المحيطة، ثم إلى الأعماق الأبعد حيث الوهج أشد بياضاً.

وارتجف كيانه مرة أخيرة... مترددًا على حافة قرارين لا رجعة فيهما.

الفصل الرابع عشر

العودة الجسدية

اللحظة امتدت كأنها دهر.

ثم تحرّك مدحت.

كيانه الطاقي انسحب ببطء من الدائرة المتوهجة، مبتعدًا عن الحضور الأخرى التي همهمت بشيء يشبه الأسف أو الاحتقار. اقترب من عادل حتى اختلطا للحظة قصيرة.

ـ مرة واحدة فقط — همس —. سأرجع معك... لأنظر. ثم أقرر.

عادل لم يعطِ فرصة للتردد الثاني. سحب صديقه معه نحو الأعلى، عكس اتجاه التيارات، نحو الطبقة الخارجية حيث الشعاع الذي جاء عليه ما يزال ينتظر كجسر من نور.

الصعود كان أصعب من النزول.

المادة ترفض أن تترك الحرية. الجاذبية النووية تمسك بهما كأيدي عاشق لا يريد الفراق. لكن عادل ركز كل إرادته على الصورة الوحيدة التي ما زالت واضحة: المنصة الخضراء المعتمة داخل القلعة، والملفّان اللذان يعيدان المادة إلى شكلها القديم.

اخترقا الطبقة الخارجية معاً. رأيا زوما السوداء تقترب بسرعة. ثم الفتحة العلوية. ثم الظلام الداخلي للكويكب. ثم... الجدران الحجرية للقلعة.

الضوء الأخضر الضارب إلى الزرقة انفجر حولهما.

التحول العكسي كان عنيفاً.

عادل شعر بالمادة تتراكم فجأة داخل كيانه كالرصاص المنصهر. الذرات تتجمع، الجزيئات تتشابك، الخلايا تُبنى من جديد في ألم حادّ لم يكن يتذكره. الوزن سقط عليه كجبل. الهواء دخل رئتين لم تعدا معتادتين عليه فأحرقهما. القلب دقّ أول دقة فبدت كالمطرقة.

سقط على المنصة الخضراء وهو يرتجف بعنف. الجسد كان ثقيلاً، بطيئاً، محدوداً، مؤلماً في كل مفصل. الجلد الذي كان يوماً سجناً صار الآن قيداً لا يُحتمل.

بجانبه كان مدحت ينهار على الأرض نفسها.

الجسد النحيل الذي عاد إليه كان يرتعش بلا توقف. عيناه واسعتان فارغتان، فمه مفتوح على صرخة بلا صوت. كان ينظر إلى يديه — اللحم والدم والعظام — كأنه يرى شيئاً مقززاً.

ـ لا... — خرج الصوت أجش ومكسوراً —. ثقيل... ضيق... ميت تقريباً.

الباب انفتح فجأة.

فهد اندفع أولاً بجسده المعدني الهائل، ثم نبيل يحوم خلفه بسرعة مجنونة.

ـ كابتن! — صوت الروبوت كان أعلى من المعتاد —. عدت... وأنت...

نبيل توقف في الهواء عندما رأى مدحت.

ـ يا إلهي الافتراضي... إنه هنا. حي.

عادل حاول أن ينهض ففشل في المحاولة الأولى. جسده لم يعد يطيع كما كان. في المحاولة الثانية استند إلى ذراع فهد المعدنية الباردة ووقف مرتجفاً.

ـ الأجهزة... أطفئها — أمر بصوت خافت مبحوح —. الآن.

فهد نفذ الأمر بسرعة. الوهج الأخضر خفت ثم انطفأ. الملفان الذهبيان عادا إلى صمتهما القديم.

مدحت ظلّ جالساً على الأرض، يحتضن ركبتيه، ويرتجف. نظراته كانت تتنقل بين الجدران الحجرية وبين يديه كأنه لا يصدق أنه عاد إلى هذا السجن.

ـ أخرجوني من هنا — همس مراراً —. أخرجوني... الثقل يقتلني. الهواء يختنقني. أريد أن أعود...

عادل ركع بجانبه رغم الألم في ركبتيه الجديدتين-القديمتين. وضع يداً بشرية مرتجفة على كتف صديقه.

ـ أنت عدت يا مدحت. نحن هنا. نبيل وفهد وأنا. أنت لست وحدك.

لكن مدحت رفع عينيه إليه، وفيهما رعب مقدس لا يُوصف.

ـ أنت لا تفهم — قال بصوت مكسور —. أنا مت. وهذا... هذا ليس حياة. هذا قبر يتنفس.

خارج القلعة، في الغابة البعيدة، كانت صرخة الوحش المجهول ترتفع مرة أخرى وتموت في الصمت.

أما داخل مكان الولادة، فقد عاد رجلان من قلب الشمس... لكن واحداً منهما فقط كان ما يزال يريد البقاء.

الفصل الخامس عشر

السجن داخل الجلد

القلعة كانت هادئة بشكل مخيف.

مدحت ظلّ جالساً على الأرض الباردة، ظهره إلى الجدار الحجري، يحدّق في يديه كأنهما لا تخصانه. عادل جلس مقابلَه على بعد مترين فقط. نبيل يحوم في الزاوية بصمت غير معتاد، وفهد يقف عند المدخل كتمثال يحرس لحظة لا يريد أن يتدخل فيها.

مرّت دقائق ثقيلة قبل أن يتكلم مدحت.

ـ هل تشعر به؟ ـ سأل بصوت خافت مبحوح.

ـ بماذا؟

ـ بالثقل. كل سنتيمتر مربع من الجلد يضغط. الرئتان تطلبان هواءً كل بضع ثوانٍ كأنهما تختنقان. المعدة تذكّرك بالجوع. المثانة بالامتلاء. والجسد كله... يذكرك أنه سيموت يوماً ما. هذا ليس حياة يا عادل. هذا سجن متنقّل مصنوع من لحم.

عادل تنهّد ببطء. جسده هو الآخر كان ما يزال يحتجّ على العودة. كل عضلة تؤلمه، وكل نفس يبدو جهداً كبيراً بعد الحرية المطلقة التي عرفها هناك.

ـ أعرف ـ قال ـ. شعرت بنفس الشيء. لكن السجن... يعطينا شيئاً لا تعطيه الحرية الأبدية. المعنى. الحد. القيمة التي نمنحها للحظات لأننا نعرف أنها لن تدوم.

مدحت رفع عينيه أخيراً. كانت فارغة من أي دفء سابق.

ـ المعنى؟ المعنى الذي نصنعه ونحن خائفون من النهاية؟ هذا ليس معنى. هذا تعزية. هناك... في القلب، لم أكن أحتاج إلى تعزية. كنت أعرف. كنت جزءاً من الدورة نفسها التي تصنع النجوم وتفنيها. هنا أنا مجرد كائن يأكل ويشرب وينام ويموت. كائن ينتظر النهاية وهو يتظاهر أنها مهمة.

صوته ارتفع قليلاً، وصار أحدّ:

ـ أنت سحبتني من الفردوس لترجعني إلى القبر. لماذا؟ لأنك خفت أن تبقى وحدك؟ لأن نبيل وفهد يحتاجون إلى وجه بشري يطمئنهم؟

عادل شعر بالكلمات تضربه كصفعة.

ـ سحبتك لأنك صديقي. لأنك وعدتني أن تعود. لأن الرجل الذي عرفته كان يحب الأسئلة أكثر من الإجابات النهائية. وكان يحب أن يشارك تلك الأسئلة مع الآخرين.

مدحت ضحك ضحكة قصيرة جافة لا تشبهه.

ـ الرجل الذي عرفته مات في اللحظة التي دخل فيها الشعاع. ما عاد معك هو ظلّه فقط. ظلّ يتذكر طعم الحرية ويرفض أن ينساه. أنا لن أبقى هنا يا عادل. لن أعيش داخل هذا الجلد الميت يوماً إضافياً.

نهض ببطء، مرتجفاً، وتوجه نحو المنصة الذهبية. عادل وقف أيضاً.

ـ مدحت... لا.

ـ لا توقفني. أنت نفسك تعرف الإغراء. شعرت به. الفرق الوحيد بيننا أنني صادق مع ما شعرت به، وأنت ما زلت تتشبث بالسلاسل لأنها مألوفة.

نبيل تكلم لأول مرة منذ العودة:

ـ إذا ذهبت الآن... لن نستطيع إعادتك مرة ثانية. الأجهزة قد لا تتحمل تحويلاً ثالثاً بهذا القرب.

مدحت نظر إلى الكمبيوتر الطائر نظرة شبه شفقة.

ـ أنت صندوق ذكي يا نبيل. لكنك لم تدخل النار. لم تعرف. اتركني.

ثم التفت إلى فهد:

ـ وأنت... الروبوت الذي يحلم بصانعته الميتة. ابقَ مع أحلامك. أنا سأعود إلى ما هو أكبر من الأحلام.

عادل تقدّم خطوة. مد يده.

ـ رجاءً. ابقَ ولو ليوم واحد. انظر إلى النجوم من خارجها مرة أخيرة. تكلم معنا. ثم قرر.

مدحت هز رأسه ببطء. عيناه كانتا ثابتتين وواضحتين كمن اتخذ قراره منذ زمن.

ـ قررت. منذ اللحظة التي شعرت فيها بالمادة تعود إلى جسدي. هذا المكان ـ لمس صدره ـ ضيق جداً. والشمس... واسعة بما يكفي لكل ما أريد أن أعرفه حتى نهاية الزمن.

اتجه إلى لوحة التشغيل. أصابعه ـ التي كانت ترتجف قبل دقائق ـ صارت ثابتة الآن. أعاد ضبط التسلسل الذهبي بدقة العالم الذي كانه يوماً.

نظر إلى عادل نظرة أخيرة. لم يكن فيها غضب. كان فيها وداع هادئ ونهائي.

ـ اعتنِ بنفسك يا صديقي القديم. ولا تتبعني هذه المرة. بعض الأبواب... يُفضل أن تبقى مغلقة.

ثم ضغط على الزر الأخير.

الضوء الذهبي انفجر مرة أخرى داخل القلعة.

وعندما خفت... لم يكن على المنصة أحد.

الفصل السادس عشر

الوميض الأخير

الضوء الذهبي خفت ببطء كأن نجماً صغيراً يموت داخل الحجرة.

عندما عادت الظلال إلى أماكنها، كانت المنصة فارغة تماماً. لا جسد، لا رماد، لا أثر. فقط الهواء الذي ما يزال دافئاً قليلاً، ورائحة غريبة تشبه رائحة المعادن التي تعرضت لحرارة هائلة ثم بردت فجأة.

عادل ظلّ واقفاً مكانه. يده ما تزال ممدودة إلى الأمام كأنه يستطيع أن يمسك بالوميض الأخير ويعيده. مرت ثوانٍ طويلة قبل أن تنزل يده ببطء إلى جانبه.

نبيل كان أول من تكلم، صوته أهدأ مما سمعه عادل منذ سنوات:

ـ انتهى الأمر. القراءات تشير إلى أن التحويل اكتمل. خرج مع الشعاع... ولن يعود.

فهد اقترب من المنصة ووقف أمامها طويلاً. مدّ يده المعدنية الكبيرة ولمس السطح البارد حيث كان مدحت يقف قبل لحظات.

ـ كان يرتعش عندما عاد — قال بصوته العميق —. والآن... لم يعد يرتعش.

عادل لم يرد. سار ببطء نحو الملابس التي تركها مدحت في الزاوية منذ أشهر، والتقط المعطف الرمادي. ضغطه بين يديه لحظة، ثم طواه بعناية ووضعه داخل الحقيبة الصغيرة.

ـ نغلق كل شيء — قال أخيراً، صوته أجش لكنه ثابت —. ندفن المدخل كما وجدناه. لا أحد آخر يجب أن يعرف.

عملوا في صمت. فهد أعاد الصخور الكبيرة إلى مكانها فوق النافذة الثلاثية بقوة هادئة دقيقة. عادل ونبيل ساعدا في ردم التربة حتى اختفى أي أثر للمبنى تقريباً. عندما انتهوا، بدا المكان مرة أخرى كأنه انهيار أرضي طبيعي على سفح تل محروق.

خرجوا من المنطقة المحروقة ودخلوا الغابة. الأشجار العملاقة كانت ما تزال تهمس بالضباب، والبحيرة الصفراء تلمع في الأفق البعيد كعين مفتوحة. لم يظهر سكان زوما هذه المرة. ربما عرفوا. ربما شعروا أن اللعنة اكتملت مرة أخرى وابتعدت.

عندما وصلوا إلى السفينة «الشهاب»، توقف عادل لحظة على الرصيف الحجري ونظر إلى الخلف.

القلعة مدفونة. الرسالة على العمود ما تزال محفورة. والرجل الذي جاء من أجله صار الآن جزءاً من النار التي لا تنطفئ.

صعدوا.

فهد أغلق البوابة. نبيل شغّل المحركات. عادل جلس في مقعد القيادة ونظر إلى الشاشة الرئيسية حيث يظهر قرص الشمس الهائل كما كان في البداية... وكما سيكون دائماً.

ـ ارفعنا — أمر بهدوء.

السفينة ارتفعت ببطء فوق الغابة، فوق البحيرة، فوق الأطلال. خرجت من فوهة زوما إلى الفضاء الأسود. الكويكب صار صغيراً خلفهم، ثم صار نقطة، ثم اختفى في وهج الشمس.

عادل لم ينظر إلى الخلف مرة أخرى.

أمامهم كان الطريق طويلاً إلى المحطة، وإلى الحياة التي تركوها، وإلى الأسئلة التي لن يجدوا لها إجابات كاملة أبداً.

وخلفهم، في قلب النجم الذي لا يرحم ولا ينسى، كان وميض أخير يذوب في محيطات اللهب... ثم يختفي إلى الأبد.

الفصل السابع عشر

ظل النجم

السفينة «الشهاب» كانت تبحر في الصمت العميق بين عطارد والزهرة.

عادل أشرف جلس وحيداً في غرفة المراقبة العلوية، حيث الزجاج الواقي يمتد من الأرض إلى السقف. أمامه كان قرص الشمس ما يزال يملأ جزءاً كبيراً من الأفق، رغم المسافة التي قطعوها. الوهج خفّ قليلاً، لكنه بقي قوياً بما يكفي ليلقي ظلالاً حادة داخل الغرفة.

لم يُشعل الأنوار.

أحب أن يجلس في هذا الضوء الذهبي المائل إلى البياض، وأن يدع الظلال تتحرك حوله ببطء.

على الشاشة الجانبية كانت تظهر بيانات الرحلة: الوقود، المسار، الوقت المتبقي حتى المحطة الرئيسية. كلها أرقام باردة ومنتظمة. لا شيء فيها يذكّر بما حدث داخل زوما، أو بما رآه في قلب النجم.

لكن الذاكرة لم تكن بحاجة إلى أرقام.

كل مرة يغلق فيها عينيه يرى الملفين الذهبيين، والمنصة الفارغة، ووجه مدحت وهو يبتسم الابتسامة الأخيرة قبل أن يذوب في النور. وكل مرة يفتحهما يعود الثقل إلى جسده كأنه يذكره: أنت ما زلت هنا. أنت اخترت الجسد.

نبيل دخل الغرفة بهدوء هذه المرة، دون سخرية جاهزة.

ـ فهد يطلب إذنك لبدء فحص شامل للأنظمة بعد اقترابنا من الشمس بهذا الشكل.

ـ دعه يفعل — أجاب عادل دون أن يلتفت.

صمت قصير. ثم قال نبيل بصوت أكثر هدوءاً:

ـ هل ما زلت تشعر به؟

عادل عرف ما يقصد.

ـ أحياناً. مثل طعم معدني في مؤخرة الحلق. أو مثل حلم يستيقظ معك ولا يكتمل. الحرية التي عرفناها هناك... لا تُنسى بسهولة.

نبيل حلق أقرب إلى الزجاج ونظر إلى الشمس معه.

ـ هل تعتقد أنه سعيد؟

ـ لا أعرف إن كان «السعادة» كلمة تصلح هناك — قال عادل —. لكنه... مكتمل بطريقة ما. ونحن هنا ما زلنا ناقصين. وهذا هو الفرق.

بعد أن غادر نبيل، بقي عادل وحده وقتاً طويلاً.

فكّر في كاه وسكان زوما الذين يروون اللعنة لأطفالهم. فكّر في توجا الذي اختار البقاء منذ آلاف السنين. فكّر في الحضور الأخرى التي رآها في المركز، والتي ربما كانت تراقب السفينة الآن من بعيد، من داخل النار نفسها.

ثم فكّر في نفسه.

هل سيعود يوماً؟

السؤال لم يكن جديداً. كان يزوره في اللحظات الهادئة منذ لحظة العودة. الإغراء لم يمت. كان ينام فقط تحت الجلد الثقيل، ينتظر لحظة ضعف أو لحظة فضول أقوى من الخوف.

ابتسم ابتسامة صغيرة حزينة.

ربما. يوماً ما. عندما يكبر نبيل وفهد بما يكفي ليفهما، أو عندما يصير الندم أثقل من الرغبة في البقاء. ربما سيعود إلى زوما، ويفتح القلعة المدفونة مرة أخيرة، ويخطو إلى المنصة الذهبية بلا عودة.

أو ربما لا.

ربما سيكتفي بأن يحمل الظل داخلها: ظل النجم الذي دخل قلبه ولم يخرج تماماً. ظل الصديق الذي اختار النار على اللحم. ظل المعرفة التي رآها ولم يستطع أن ينساها.

رفع يده ووضعها على الزجاج البارد.

أمامه كانت الشمس تدور في صمتها الأزلي، غير مبالية بالسفينة الصغيرة التي تبتعد عنها، ولا بالرجل الذي جلس ينظر إليها كمن ينظر إلى بيت تركه خلفه... أو إلى بيت قد يعود إليه يوماً.

وفي مكان ما، أعمق مما تستطيع أي سفينة أن تصل، كان ضوء قديم يهمس بأسماء من نسيها الجميع.

إلا واحداً.

ما زال يتذكر.

النهاية